بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٧﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

أفلحَ: أفلحَ الرجلُ: فاز وظفر بما طلَب. وأفلح زيدٌ: نجَح في سعيه وأصاب في عمله (الأقرب). والفلاح: الظفرُ وإدراكُ بُغية (المفردات).

خاشعون: جمعُ خاشعٍ: وخشَع: ذَلَّ وتَطَأْمَنَ. وخشَع ببصره: غَضَّه. وفي "النهاية": الخشوع في الصوت والبصر كالخضوع في البدن (الأقرب).

والخشوع: الضراعةُ، وأكثرُ ما يُستعمل الخشوعُ فيما يوجَد على الجوارح، والضراعةُ أكثرُ ما تُستعمل فيما يوجَد في القلب (المفردات).

اللغو: ما لا يُعتدّ به من كلام وغيره (الأقرب). وقد يسمى كلُّ كلام قبيح لغوًا (المفردات).

الزكاة: زكَى الشيءُ: نما. وزكا الرجلُ: صلح وتنعَّمَ وكان في خصب، ومنه زكَت الأرضُ (أي صارت ذات خضرة ونضارة). وزكّاه اللهُ: أنماه؛ طهّره. وزكّى فلان مالَه: أدّى عنه زكاتَه. وزكّى نفسَه: مدَحها. والزكاة: صفوةُ الشيءِ؛ طاعةُ الله؛ ما أخرجتَه من مالك لتطهّره به. وقيل: سُمّيت الصدقةُ بالزكاة لأنها تزيد في المال الذي تخرج منه وتوفِّره وتقيه من الآفات (الأقرب).

الفردوس: الجَنّةُ التي تُنبت ضروبًا من النبت؛ البستانُ يجمَع كلَّ ما يكون في البساتين (الأقرب).

التفسير: تنطوي هذه الآية على نبأ ألا وهو: أن المسلمين الذين يتحلّون بالخصال التالية.. أي أنهم لا يعبدون الله في الظاهر فحسب، بل يذكرونه بكامل الخشوع والخضوع والتواضع والتذلل والضراعة، ويتجنبون كل ما هو عبث لا ينفع أنفسهم ولا قومهم ولا بلادهم، ويكونون جاهزين لكل نوع من التضحية من أجل رقي بلدهم، ويسدّون كل منفذ يسري منه الفساد إلى قلوب البشر، ويهتمون بعفّتهم كل الاهتمام، ويحفظون فروجهم كل الحفظ إلا بالطرق المشروعة، ويؤدون ما فُوّض إليهم من واجبات ومسؤوليات، ولا ينكثون المعاهدات التي تتم بينهم وبين الأمم الأخرى، ويجعلون الفردية تابعة للملة وينمّون المشاعر القومية، إن مثل هؤلاء المسلمين سينجحون في هدفهم وسيكون نصر الله حليفهم.

الحق أن هذه الحقيقة الرائعة تدحض موقف الشيعة. ذلك لأنهم يزعمون أنه لم يوجد – والعياذ بالله – في زمن رسولنا الكريم ﷺ إلا مسلمانِ ونصف مسلم.. أي عليّ ومولى له وسلمان الفارسي رضي الله عنهم. وهذا الزعم لباطل من حيث إن محاسن أي دين إنما تُعرَف بأثماره. وقد أشار المسيح عليه السلام إلى ذلك فقال: "كل شجرة جيدة تصنَع أثمارًا جيدة، وأما الشجرة الرديّة فتصنع أثمارًا رديّةً. لا تقدر شجرةٌ جيدة أن تصنَع أثمارًا رديّة، ولا شجرةٌ رديّةٌ أن تصنع أثمارًا جيدة. كل شجرة لا تصنَع ثمرًا جيدًا تُقطَع وتُلقَى في النار. فإذًا من ثِمارهم تعرِفونهم." (متى ٧: ١٧-٢٠)

فالذي يدعي أنه مبعوث من عند الله تعالى لإصلاح الدنيا، ومع ذلك تذهب جهوده الإصلاحية كلها سدى، حيث يخلف وراءه جماعة من اللادينيين المنافقين البعيدين عن الله تعالى لا يتجاوز عدد المؤمنين فيها رجُلين ونصف الرجُل، فلن يُعَدّ هذا مدّعيًا صادقًا. إذ من المحال تمامًا أن يبعث الله أحدًا بمهمّة، ثم يفشل هو في تحقيقها. إنما يُعَدّ هو من الناجحين إذا كان معظم أفراد جماعته الذين تَربَّوا على يده واستفادوا من صحبته متأثرين به وداعين إلى منهجه وعاملين بتعليمه تمامًا، وإلا لصارت بعثته عبثًا وبلا جدوى على الإطلاق. كما أنه من المستحيل أيضًا أن تتردى جماعة من الصلحاء الأطهار فجأة وتصبح مثالاً للشر والفتنة بدون أن تمر بمراحل الانحطاط تدريجيًّا. فالمذهب الذي يعلن أن صحابة الرسول ﷺ والذين خدموا الإسلام بعدهم إنما كانوا جماعة من المنافقين، وأن الإسلام إنما كان في شخص الرسول ﷺ ثم بعد وفاته انحصر تأثيره في بضعة أفراد من أقاربه؛ أقول إن مثل هذا المذهب لا يخلو من أحد اثنين: فإما أنه يجهل قانون الطبيعة وعظمة الأنبياء جهلاً تامًا، أو أنه يعادي النبي ﷺ في الخفاء حيث يريد أن يثبت أنه ﷺ كان شخصًا فاشلاً، ويريد الحطَّ من الإسلام وإرضاء أعدائه مؤكدًا لهم أن شجرة الإسلام لم تحمل أي ثمر، وأن تعليمه عديم التأثير. لقد قال النبي ﷺ: "مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ." (مسلم: كتاب الإيمان). كذلك فإن الناس إذا اعتبروا قومًا من هُداتهم الروحانيين احترموهم أكثر من آبائهم وأمهاتهم. أما إذا سمّت طائفة هُداتها منافقين وكافرين فإنما يسبّونهم في الحقيقة. وهي جريمة بالغة الخطورة توسِّع خليج الفُرقة والخلاف. فأولاً إن قول الشيعة أن عدد المؤمنين برسول الله ﷺ لم يتجاوز شخصين ونصف شخص و لم يكن الآخرون إلا منافقين وكافرين – والعياذ بالله – إنما يمثّل طعنًا في قوة النبي ﷺ القدسية وسموّ كمالاته الروحانية. إن الرسول ﷺ يسمّي نفسه سيد الأنبياء، كما صرح القرآن الكريم أيضًا، ولكنه ﷺ يصبح أدنى درجة من موسى وعيسى أيضًا بحسب قول الشيعة هذا؛ إذ أثنى الله على حواريي المسيح عليه السلام في القرآن الكريم (الصف: ١٥)،

أما موسى عليه السلام فقد أخبر الله تعالى أنه قد آمن به "ذرية" من قومه وإن لم يؤمن به كلهم (يونس: ٨٤)، وطبعًا ليس المراد من "ذرية من قومه" شخصين ونصف شخص فقط.

وثانياً: لقد رد الله بقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ على هذا الهجوم الشيعي، مبينًا أن نظريتهم هذه باطلة تمامًا لا أساس لها من الصحة. فلفظ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ المستعمل هنا هو للجمع السالم، مما يستلزم أن يكون عدد المؤمنين بالنبي ﷺ ثلاثة أو أكثر. ولو أخذنا في الحسبان الأنواع السبعة للمؤمنين المذكورة في الآيات التالية استلزم أن يكون عدد هؤلاء المؤمنين واحدًا وعشرين رجلاً على الأقل، في حين يقول الشيعة أن المؤمنين بالرسول ﷺ لم يكونوا أكثر من شخصين ونصف شخص.

وثالثًا: تعلن هذه الآية أن المؤمنين مفلحون. وتؤكد الأحداث أن أبا بكر وعمر وعثمان – رضي الله عنهم – كانوا من المفلحين، أما علي رضي الله عنه فعاش على المنح التي كان يتلقاها من هؤلاء. وعندما نال الحكمَ انقلب أصحابه أعداء لـــه، وقُتل بيدهم هم.

فثبت من ذلك أن أهل السنة والجماعة الذين يرون أن الصحابة كلهم مؤمنون هم على الحق، وليس أولئك القوم الذين يظنون أنه لم يكن في نصيب الرسول ﷺ من المؤمنين إلا شخصان ونصف. إن مكانة الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين– عالية لدرجة أن القرآن نفسه يثني عليهم ويقول إنهم قد بلغوا الغاية في الورع والإخلاص حتى رضي الله عنهم. يقول الله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١٠٠).. أي الذين سبقوا في الخيرات من المهاجرين والأنصار وكذلك الذين اتبعوا آثارهم في طاعة كاملة قد رضي الله عنهم وصاروا هم راضين عنه. لقد أعدّ الله لهم جنات تجري خلالها الأنهار وسيقيمون فيها للأبد، وهذا هو النجاح العظيم.

ولكن طبقًا لعقيدة الشيعة، كان الله تعالى – والعياذ به – ساذجًا لدرجة أنه وقع في خداع المنافقين، ورضي عنهم. فبالله أخبِرونا، أليس القول بنفاق المهاجرين والأنصار الذين رضي الله عنهم وأعدّ لهم جناته ومنحهم شهادة رضوانه، لهو قولٌ يدل على نفاق صاحبه وقلة إيمانه؟

ثم يقول الله تعالى عن الصحابة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب:٢٤).. أي أن من الصحابة من وفّى بعهده الذي عاهده عند إسلامه، فاستُشهد وهو يقاتل الكافرين، ومنهم من ينتظر ذلك. والواقع أن الذين آمنوا برسول الله ﷺ ثم استُشهدوا في الحروب ضد الكافرين عددهم يتجاوز العشرات، ولكن الشيعة أذكياء في الحساب لدرجة أن هذه الجماعة التي تبلغ العشرات يقولون عنها أنها لا تتجاوز اثنين ونصفًا فقط.

كما يقول الشيعة أن عليًّا كان أحق بالخلافة، وهو الذي قد أوصى النبي ﷺ بها في حقه؛ ولكن كل واحد من أبي بكر وعمر أراد الخلافة، ونصّب نفسه خليفة وغصَب حقَّ عليٍّ. (جلاء العيون (الفارسي) الباب الأول، الفصل السادس ص ٨٥)

والحق أن هذا الاعتقاد باطل لعدة أسباب:

أوّلها: أنه لمما يخالف العقل تمامًا أن يُظن أن شجاعًا مغوارًا كعلي ﷺ ظل صامتًا على أمر كان يراه حقًّا له، بل كان الرسول ﷺ نفسه قد أوصى به في حقه ﷺ؛ فلم يحرّك ساكنًا ضد قوم خالفوا هذا الأمر متناسيًا وصية الرسول ﷺ، برغم أنه كان يرى أن أمة الإسلام تسقط في هوة الدمار.

وثانيها: من الثابت تاريخيًا أن عليًّا قد بايع أبا بكر ثم عمر – رضي الله عنهم – وكان يعمل مع هذين الخليفتين بإخلاص. بل قد جعله عمر في عهده أميرًا على المدينة في غيابه خلال بعض أسفاره. فقد ورد في الطبري أنه عندما مُني جيش المسلمين بنوع من الهزيمة على أيدي الفرس في وقعة الجسر استشار عمر ﷺ المسلمين وقرر أن يخرج بنفسه مع الجيش المسلم إلى الحدود الإيرانية، فأمّر عليًّا ﷺ

على المدينة في غيابه. وكذلك لما حاصر المسلمون القدس ورفض أهلها وضع السلاح حتى يأتيهم عمرُ نفسُه، خرج هو إليهم بعد أن جعل عليًّا أميرًا على المدينة، برغم أن سفره هذا قد استغرق عدة شهور. (البداية والنهاية المجلد الثالث ص ١٤٧، والمجلد الخامس ص ٢٤٩ والمجلد السابع ص ٥٥، وتاريخ الطبري: ذكر الخبر عما هيج القادسية، وتاريخ ابن خلدون: ذكر فتح بيت المقدس)

لو صح موقف الشيعة، فإن هذه الرواية تثبت أن عليًّا كان يخفي موقفه لدرجة أن عمر – رضي الله عنهما – كان يجعله أميرًا على المدينة في غيابه دون أن يخاف أدنى خوف من تمرد عليّ عليه في غيابه. وهذا يعني أن عليًّا كان يكتم الحق كتمانًا عظيمًا! ولو نسبنا هذا الأمر إلى أحد علماء الشيعة اليوم فسوف يسبّنا حتمًا، ومع ذلك فإنهم لا يخجلون مطلقًا من أن ينسبوا هذا الأمر القبيح إلى عليّ ﷺ! والحق أنهم لا يسبّون بذلك أبا بكر وعمر، بل يسبّون عليًّا – رضي الله عنهم. ذلك أن عليًّا ما دام قد بايع أبا بكر وعمر على الطاعة، وعمل معهما، فالقول أنه كان يؤمن في قلبه أنه أحقّ بالخلافة، لا من حيث الجدارة بل بموجب الشرع، يرادف القول أنه – حاشا لله – كان يبدي ما ليس في قلبه؛ وإن تصور مجرد إمكانية صدور هذا الأمر عن علي ﷺ لإثم في حد ذاته، دعك عن صدوره عنه حقيقة.

إذًا فإن سلوك عليٍّ ﷺ نفسه يفند زعم الشيعة هذا، كما يبطله قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ وما يليه من الآيات؛ حيث أكد الله تعالى أن النجاح حليف المؤمنين المتصفين بتلك الصفات، إذ يعني لفظ ﴿أَفْلَحَ﴾ نجح وفاز. فإذا كان أبو بكر وعمر وعثمان يريدون الخلافة كما يزعم الشيعة، ثم صاروا خلفاء فعلاً، فقد ثبت من ذلك بكل جلاء أنهم كانوا مؤمنين كاملين حقًّا، حيث سلّم الله إليهم زمام أمور المسلمين الدينية والسياسية وجعلهم هداة للعالم. وإلا فلا مناص من التسليم بأن عليًّا لم يرد أن يتولى الخلافة رغم وصية الرسول ﷺ، بل أراد أن يتولاها أبو بكر عوضاً عنه؛ فحقق الله تعالى رغبةَ عليٍّ هذه، ونجح أبو بكر في تولي الخلافة؛ ولكن أخذ أتباع عليّ ﷺ يسبّون أبا بكر فيما بعد.

قصارى القول إن آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ..﴾ تفند زعمَي الشيعة كليهما؛ أعني أنها تبطل أولاً زعمهم أن أكثرية المؤمنين برسول الله ﷺ كانوا منافقين، إذ لم يؤمن به في الحقيقة إلا شخصان ونصف شخص؛ كما تبطل زعمهم أن عليًّا كان أحقَّ بالخلافة، ولكن أبا بكر وعمر وعثمان غصبوا حقه.

وليكن معلومًا هنا أن الله تعالى قد استخدم هنا كلمة الفلاح بحق المؤمنين فقال ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وهذا يبين أن غاية المؤمن الحقيقية ليست أن ينال النجاة بل أن يحرز الفلاح. لا شك أن النجاة – وهي تعني أصلاً تجنُّب المرء المصائبَ والآلام– ميزة كبيرة، ولكن الميزة الكبرى أن يحقق المرء هدفه. ومثله كمثل قولنا عن قائد من القواد إنه قد نجا من العدو؛ ولا غرو أن نجاة القائد من العدو في المواقف الحرجة عمل محمود، ولكنه إنما يستحق الثناء الحقيقي إذا ما أسَر عدوَّه. كذلك فإن الإسلام لا يأمر بإحراز النجاة، بل يدعو المؤمنين إلى إحراز غاية أعظم من ذلك، فيقول عليهم بإحراز الفلاح؛ لأن الفلاح ضد العدو يتضمن النجاة من شره حتمًا. ومثاله الآخر أن هناك شخصًا لا يشعر بالجوع، ولا شك أنه يكون في مأمن من قرصات الجوع بلا مراء، ولكن الأفضل منه من قد تناول طعامًا مغذيًا، لأنه في مأمن من قرصات الجوع كما أن بدنه يكون صحيحًا قويًّا. إذًا فالفلاح مقام يضمن فيه المرء النجاةَ من الشر والفوزَ بالهدف الذي خُلق من أجله. والبديهي أن غاية خلق الإنسان أن يصير مظهرًا لصفات الله تعالى ويحظى بقرب الحبيب الحقيقي وفقًا لما أودع الله فطرتَه من رغبة في الوصال به ﷻ. وقد ذكر الله تعالى هذه الغاية في قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٧). فالفلاح هو إحراز الإنسان غاية خلقه. أما كيف ينال المرء هذا المقام، وما هي وسائله وطرقه، فكل هذه الأمور مذكورة بالتفصيل في هذه الآيات.

فقد ذكر الله تعالى في هذه السورة الخَلق الروحاني إزاء الخلق الجسدي، وبدأ الحديث عن الخلق الروحاني أولاً فقال قد أفلح المؤمنون الذين يؤدّون صلواتهم في خشوع وخضوع. ثم يترقون فيصلون إلى مقام حيث يتجنبون كل ما هو لغو وعبث.. أي أنهم يحترزون من كل فعل ليس فيه أي نفع عقلاً. ومثاله لعبة

الشطرنج وغيرها من الألعاب العديدة التي هي مضيعة للوقت. فالإسلام يأمر كل مؤمن بتجنب كل لغو من الأفعال والألعاب من شطرنج وورق اللعب وغيرهما مما هو مضيعة للوقت. بيد أن الإسلام لا ينهى عن الرياضة، فإنها تولّد في المرء الشجاعة والبسالة كما تشحنه بالقوة. والخوض في فضول الحديث في المجالس أيضًا لغو، والعيش بدون أي عمل أيضًا لغو. فمن الناس من يجلسون مع الأصدقاء طوال النهار بدون أي عمل ويتجاذبون أطراف الحديث الذي لا طائل منه، دون أن يدركوا مطلقًا أنهم يهدرون أوقاتهم الثمينة. وفي بعض الأحيان يموت المرء تاركًا وراءه ثروة كبيرة، فلا يكون لابنه عمل إلا قضاء اليوم كله مع أصدقائه في فضول الكلام. فيدخل عليه الواحد تلو الآخر ويكيلون لـــه المدح والثناء، خائضين في اللغو من الحديث طيلة اليوم، فيغترّ بمديحهم، ويقدم لهم شتى الخدمات. فيقدم لهم "البان"* على الأقل، أو يقدم لهم أشهى الأطعمة صباحًا ومساء؛ ليس لأن أصدقاءه فقراء ومساكين جياع يستحقون العطف والمواساة، وإنما لأنهم يزورونه ليقضي وقته معهم بسرور. إن الإسلام لا يسمح بمثل هذه التصرفات مطلقًا. كلا، بل ينهى المسلمين عن اللغو من الأفعال دائمًا. إنهم لا يفعلون ويجب ألا يفعلوا أي عمل ليست فيه أي منفعة عقلاً بل إنه يجعل حياة المرء عاطلة. إن الذي يأكل أموال أبويه ولا يعمل أي عمل، عليه أن يفكر على الأقل ماذا نفعتْه حياتُه أو نفعتْ قومَه. الواقع أن مثل هذه الحياة لا تنفعه هو ولا قومه ولا باقي الناس. إنه يضيع عمره في البطالة والترف، ولكن الإسلام لا يسمح بمثل هذه الحياة الخالية من العمل. لو ورث المرء من أبويه عشرات الملايين فرغم امتلاكه هذه الثروة الهائلة يأمره القرآن الكريم أن لا يضيع وقته، بل يستغله فيما ينفع قومه ودينه. فإذا كان في غنى عن عمل يؤمّن لـــه الأكل، فبوسعه القيام بأعمال تطوعية. وهكذا فإنه،

* "البان" في الأصل اسم شجرة في الهند. يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. *(المترجم)*

بإسداء خدمات مجانية إلى بلده أو قومه أو دينه، يحمي وقته من الضياع، كما يجعل نفسه نافعًا للناس باستغلال أوقاته استغلالاً صحيحًا.

وعملاً بأمر الله تعالى بتجنب اللغو قد نهى النبي ﷺ الرجالَ عن لبس الحلي والحرير (البخاري: كتاب اللباس، والنسائي: كتاب الزينة). إن لبس الحلي ليس حرامًا على النساء، إلا أن النبي ﷺ قد كرِه لهن أيضًا لبس الحلي في الظروف العادية (النسائي: كتاب الزينة: باب الكراهية للنساء في إظهار الحلي). إن لبس الحلي حلال لهن كونهن رمزًا للزينة، ولكن لا يسمح الإسلام بالإنفاق على الحلي بحيث يُلحق الضرر باقتصاد البلد، أو يولّد فيهن نـــزعة التفاخر، أو يزيدهن طمعًا وجشعًا. إن اقتناء الحلي مسموح لهن ولكن إلى حد معقول. أما الرجال فحرام عليهم استعمال الحلي قطعًا.

كما قد نهى النبي ﷺ عن استعمال أواني الذهب والفضة (البخاري: كتاب الأشربة). ويندرج في ذلك أيضًا ما يقتنيه الأثرياء عادةً في بيوتهم من أشياء لمجرد الزينة والتفاخر. لقد رأيت بعض الناس يشترون أشياء لا فائدة فيها لتزيين بيوتهم. فمثلاً يشترون الأواني الصينية القديمة ويحتفظون بها في البيوت، ظانين أنه شيء غال. ويوجد هذا العيب في الأوروبيين خاصة حيث ينفقون على شراء هذه الأواني حتى خمسة أو عشرة آلاف من الروبيات، ثم يخبرون الناس أن هذا الإناء قديم كذا آلاف من السنين. أو أنهم يشترون سجاجيد قديمة بمبالغ ضخمة، ثم يعلّقونها على جدران بيوتهم، مع أن السجاد الجديد من ذلك النوع يمكن شراؤه من السوق بخمسين أو ستين روبية بكل سهولة. ولا يضيعون على شراء تلك السجاجيد مبالغ ضخمة إلا ليتباهوا أمام الناس بأن ذلك السجاد قد استعمله فلان من الملوك أو أنه يبلغ من القِدم كذا من السنين. ولكن الإسلام يعدّ كل هذه الأشياء لغوًا، إذ ليست فيها أي منفعة حقيقية، بل يشتريها الناس لمجرد التفاخر بثروتهم، وهكذا يهدرون أموالاً طائلة. وإنني أرى أن الأوروبيين لو علموا اليوم أن سجادًا لكسرى إيران يباع في مكان ما فلربما اشتروه بعشرة ملايين من الروبيات. أما المسلمون فلم يكن سجاد كسرى عندهم ذا قيمة. فخلال إحدى الحروب أمر كسرى رجاله بأن

يأتوه بقواد المسلمين لأنه يريد أن يتكلم معهم بنفسه. فذهب إليه وفد من الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين. ودخل عليه رئيسهم بنعاله البالية الدميمة ضاربًا رمحه على السجاجيد والنمارق. فتحير الملك برؤية هذا المشهد وقال للمسلمين أليس عندكم شيء من التحضر (تاريخ ابن خلدون: الجزء الثاني، ذكرُ الخبر عما هيج أمر القادسية سنة ١٤ الهجرية). والحق أنه، رغم كونه ملكًا، كان يعظّم سجاده، أما المسلم، فرغم كونه فقيرًا، كان يعظم الله تعالى وحده. فكون السجاد مفروشًا في بلاط كسرى لم يجعله ذا قيمة في نظر المسلم، إذ كان لا يعظّم إلا ما هو عظيم عند الله تعالى.

قصارى القول، إن رسولنا الكريم قد نهى عَمليًّا عن كل هذه الأشياء، موضحًا أنه لا يليق بالمؤمن أن يضيع وقته الثمين في اللغو من الأمور، ولا أن يهدر ماله على هذه التوافه التي لا طائل تحتها. والحق أن دور السينما والمسرح وغيرهما أيضًا تندرج تحت هذا الحكم إذ يُهدَر عليها كثير من أموال الدولة. إن الدول الأوروبية الحرة والساعية دائمًا لرقيها الاقتصادي، تعمل على إنشاء دور السينما والمسارح أكثر وأكثر لكي يزورها المحرومون من هذا الترف، ولكي ينفقوا عليها من وقتهم ومالهم؛ ولكن الإسلام ينهى عن كل الأشياء التي ليست نافعة للإنسانية، ويعلن أننا لن نسمح بها أبدًا. ولو عمل الناس بهذه الأحكام كما ينبغي لصار مستوى الأثرياء متساويًا مع غيرهم إلى حد ما، إذ إن النفقات غير المشروعة وعديمة الفائدة هي الحافز الأكبر على جمع المال بطرق غير مشروعة.

كما أن قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ يلفت انتباهنا إلى أن المؤمنين الحقيقيين لا يتجنبون اللغو من الأعمال فحسب، بل يسعون لتجنب اللغو من الأفكار أيضًا. والواقع أن الذين قد تعودوا على التفكير في اللغو هم الذين تنتابهم شتى الأفكار والوساوس التي تشتت تركيزهم في الصلاة. ولو أنهم لم يسمحوا لهذه الخواطر اللاغية بأن تنشأ في قلوبهم وعقولهم، أو قاوموها وحاولوا القضاء عليها إذا ما نشأت، لنجحوا في ذلك حتمًا. ولكننا نرى أن عديدًا من الناس يقعون فرسى لأفكار كالتي كانت تختلج في قلب "جحا"، مع أنها لا طائل تحتها مطلقًا. على المرء أن لا يدَع نفسه أبدًا لتقع فريسة للخواطر التي ليست إلا

ظنًّا وتخمينًا، لأن ذلك يؤدي إلى ضرر آخر أيضًا، وهو أن الذي يشغل عقله بتوافه الأفكار لا يعود قادرًا على التوجه إلى المعقولات. فحريٌّ بالمرء أن يطهر قلبه وعقله من لغو الخواطر والأفكار، ويوجههما إلى أفكار عالية نافعة، لتتقوى قوته الفكرية، ولكيلا يصير عقله، وهو نعمة ربانية عظيمة، معطلاً.

ثم بيّن الله تعالى في هذه الآيات أن المؤمنين يرتقون من هذا المقام إلى أعلى منه، فلا يبرحون ينفقون أموالهم للنهوض بالفقراء. والحق أن الإسلام يرى أن كل ما في الدنيا من أشياء إنما خلقها الله جميعًا للمنفعة المشتركة للناس، ولا تخص شخصًا دون شخص. وبما أن الثروة بكل أنواعها إنما تُنال في الدنيا بمساعدة الآخرين، وبما أن مال الثري يبقى فيه نصيب للأجير حتى بعد أداء أجرته، لذا فإن الإسلام أمره بإخراج الزكاة، ليتطهر ماله مما يشوبه من حقوق الآخرين. وعلى سبيل المثال، لو أن صاحب منجم أدى لجميع العاملين فيه أجرهم كاملةً فإنما أدى لهم أجرهم فقط، بينما كان لهؤلاء حق في المنجم نفسه بحسب القرآن الكريم، وهذا يعني أنه لم يؤد لهم ما يستحقّونه بصفتهم أصحابًا للمنجم. وكان أحد السبل لرد حقهم إليهم أن يعطيهم صاحب المنجم بعض المال زائدًا على أجرهم. ولو فعل ذلك فإنما أدى بذلك حق هؤلاء الحفنة من العمال، بينما يظل سائر الناس الذين لـــهم الحق في المنجم، كما كان للعمال، محرومين من حقوقهم. ومن أجل ذلك أعلن الإسلام أنه لا بد لكل إنسان أن يؤدي جزءًا من ماله كزكاة لتنفقه الدولة على سد حاجات الناس المشتركة. كما أمر النبي ﷺ بدفع الخُمْس مما يخرج من كل المناجم إلى الحكومة لكي تنفقه على الفقراء (البخاري: كتاب الزكاة، باب في الركاز الخُمسُ). وبذلك أيضًا قد حفظ الإسلام ما للناس كلهم من حق في ملكية الأرض.

وبالمثل فإن المزارع الذي يأتي رزقه من الأرض إنما يأكل ثمرة جهوده، ولكن الواقع أنه ينتفع من الأرض التي جُعلت للناس أجمعين؛ لذا يؤخذ جزء من ريعها ويعطى للحكومة لتنفقه على مصلحة الناس كلهم. ونفس الحال للتجارة. إن التاجر يتجر بماله في الظاهر، ولكن من المحال أن تستمر تجارته بدون الأمن في البلاد. وبما أن كل شخص يسهم في توطيد الأمن، فقد فرض الإسلام الزكاة على أموال

التجارة، لكي يخرج منها ما فيها من حقوق الآخرين، ولتنفق الدولة كل هذه الأموال على المشاريع التي فيها مصلحة مشتركة للجميع.

لقد كان رسول الله ﷺ يشعر بمعاناة الفقراء لدرجة أنه إذا جاء رمضان تصدق على الفقراء بكثرة لو شُبّهتْ بالريح المرسلة أي السريعة لكان هذا التشبيه ناقصًا (البخاري: كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان).

وذات مرة جاء النبي ﷺ مال فقسمه بين الفقراء إلا دينارًا واحدًا، فتذكَّره النبي ﷺ وهو يصلي؛ فلما انتهى من صلاته أسرع إلى بيته بدلاً من الجلوس بين أصحابه للحديث معهم. ويقول الصحابة إن النبي ﷺ كان قلقًا جدًّا حتى إنه أسرع إلى البيت يتخطى رقابنا. ولما رجع قال كان ثمة دينار قد سقط في البيت من أموال الصدقة، فتذكرت ذلك وأنا في الصلاة، فقلت في نفسي لو أنني متُّ وهذا الدينار للفقراء في بيتي فماذا سيكون جوابي عند الله تعالى. فذهبت وأمرت أهلي بأن يعطوه بعض الفقراء (البخاري: كتاب الزكاة، باب مَن أحبَّ تعجيل الصدقة من يومها).

كما ورد في الحديث أنه جاء النبي ﷺ ذات مرة تمرٌ من الصدقة، ووضع الحسن تمرةً منها في فمه وهو في الثانية من عمره أو يزيد قليلا. فلما رآه النبي ﷺ أخرج التمرة بيده من فمه، وقال إنها ليس من حقنا، بل هي للفقراء. (البخاري: كتاب الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ وآله)

وذات مرة علم النبي ﷺ أن بعض أصحابه – واسمه سعد وكان ثريًّا – يتفاخر على الآخرين بماله. فقال لـــه النبي ﷺ: هل تظن أنك كسبت هذا المال بقوة يدك؟ "هل تُنصَرون وتُرزَقون إلا بضعفائكم"؟! فلا تفتخروا عليهم ولا تحتقروهم. (البخاري: كتاب الجهاد، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب)

بالاختصار، لقد أوضح الله تعالى بقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أن المفلحين هم أولئك الذين ينفقون أموالهم للنهوض بالفقراء ولا يقصّرون في دفع حقوقهم لهم. إن العمال في أوروبا قد قاموا بتشكيل نقابات تسعى للدفاع عن حقوقهم، ولكن الناس في بلادنا يعطون الأجراء أقل مما يستحقون، ثم إنهم يماطلون في دفعه لـــهم. وبرغم أن لجان عمّالنا مشكَّلةٌ في السماء وتفصل في حقوقهم

هنالك؛ إلا أنه لم يبق عند الناس في العصر الحاضر إيمان بالله تعالى مع الأسف، حيث لا يعملون بحسب قرار لجان السماء. عسى الله أن يوفقهم للعمل بحكم لجان السماء من خلال الأحمدية.

بيد أن هذا العصيان لقرار لجان السماء لم يؤد إلى هضم حقوق العمال عندنا فحسب، بل أضر بأصحاب العمل أيضًا. ذلك أنهم يستعينون بالعمال الذين لا يعملون ببشاشة لحرمانهم من حقوقهم، مما يؤثر سلبيًا على العمل الذي يُعهَد إليهم، وهكذا فإن أصحاب الأعمال أيضًا يضرون بأنفسهم بهضم حق الأجير. أما في أوروبا فلم أشاهد هناك أي شخص يمشي، بل رأيت الجميع يجرون على ما يبدو. عند زيارتي لأوروبا في عام ١٩٢٤م قلتُ للحافظ روشن علي ﷺ ذات مرة: هل شاهدت أحدًا في لندن يمشي؟ قال كلا، لم نـــر أحدًا يمشي هناك، بل كل واحد منهم يجري.

لقد شاهدت هناك مبنى كان قيد الإنشاء، فأذهلتني السرعة التي كان يعمل بها العمال. أما العامل عندنا فإنه عندما يريد رفع لبنة يتأوه أولاً ثم يضعها في السلة. وعندما يريد حمل لبنة أخرى ينفخ فيها ليزيل عنها الغبار كأنها قطعة قماش غالي الثمن. فينفخ في يمين اللبنة مرة، وينفخ في يسارها ثانية، وليس ذلك إلا تمضية للوقت. ثم يقوم ببطء، ويمشي بالسلة إلى المعمار متكاسلاً. ثم بعد أن يوصل اثنتين أو ثلاثًا من السلات، يجلس قائلاً: دعوني أتناول جرعتين من النارجيلة. أما في إنجلترا فترى النقيض، حيث ترى كل شخص هناك كأنه يجري. ولقد رأيت أن المبنى المذكور آنفًا كان قد ارتفع في دقائق، بينما لا يمكن أن يرتفع عندنا في ساعات. ولكن المؤسف أنني عندما ذهبت إلى أوروبا هذه المرة للعلاج علمتُ أن الكسل قد تسرب إلى أهل إنجلترا أيضًا، فلا يعملون الآن بالنشاط كما كانوا يعملون من قبل. بيد أنهم يقولون إن الناس في أمريكا ما زالوا يعملون بجد وبنشاط.

إذًا، فهضم حقوق الفقراء قد أضرّ بالطرفين. فإنه قد أصاب الفقراءَ بالكسل وعدم الجد والاجتهاد، أما الأثرياء فلا ينتفعون من تجارتهم وأعمالهم ومصانعهم

على ما يرام. فمن أهمّ ركائز الرقي القومي الحفاظُ على حقوق الفقراء، وأن لا يبرح الأغنياء ينفقون جزءًا من أموالهم على رقي الفقراء والنهوض بهم. فيحققون بذلك الرقي المادي، كما يتلقون البركات والجوائز الروحانية من عند الله تعالى.

ثم إن المؤمنين يترقون إلى مقام أعلى من ذلك، فيحفظون كل منفذ لهم.. أي آذانهم وعيونهم وأفواههم وعوراتهم. فلا يسمعون الغيبة، ولا يمدّون عيونهم بجشع إلى أموال الآخرين، ولا يزنون، ولا حرج عليهم في أزواجهم وما ملكتْ أيمانهم.

وليكن معلومًا بصدد تفسير قوله تعالى ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أن البعض يرى أن هذا يشمل حتى الخادمات في البيوت، بينما يرى البعض الآخر أن المراد به النسوة اللاتي يؤخذن عنوة من قوم ضعفاء بشن غارة عليهم ثم يتم بيعهن كإماء. ويقول بعضهم أن المعنى أن النسوة اللاتي يقعن أسيرات خلال الجهاد يجوز إبقاؤهن في البيوت بدون عقد شرعي.

ولكن كل هذه المفاهيم خاطئة. إن القرآن الكريم والحديث الشريف قد ذكرا الخدم والأرقّاء ذكرًا منفصلاً، فلا يندرجون في ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾. لقد قال القرآن الكريم عن العبيد صراحة ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾(الأنفال:٦٨).. أي لا يجوز لنبي أن يأخذ من قوم أسرى وأسيرات قهرًا إلا بعد أن تجري بينه وبين أعدائه حرب دامية.. بمعنى أن لا يجوز للمسلمين أخذ الأسرى من قوم لا يخوضون حربًا ضدهم، وذلك على خلاف ما كان عليه الحال في الحجاز منذ مئات السنين حيث كان أهلها يأخذون الأحباش عبيدًا لهم، أو كما كان أهل العراق يجلبون الناس كعبيد لهم من إيران وروما واليونان والجزر الإيطالية. إن الإسلام لا يجيز هذا الرق، وإنما يجيز أخذ أسرى العدو في الحرب فقط، وذلك أيضًا خلال المعركة فقط. وفي هذه الحالة أيضًا يأمر الإسلام بإطلاق سراح أسير الحرب لقاء فدية. وإذا لم يكن عنده فدية، أو لم يُرِدْ قومه دفع الفدية عنه، فعلى الدولة الإسلامية إطلاق سراحه منًّا وإحسانًا (محمد:٥). وإذا تعذر إطلاق سراحه منًّا فيمكن تسريحه بدفع الفدية عنه من أموال الزكاة (التوبة:٦٠). وإذا كان هذا صعبًا فيجب أن يُعطَى الأسير خيار المكاتبة (النور:٣٤)؛ والمكاتبة هو قول

الأسير لمالكه سرِّحْني وأنا سأدفع فديتي بمال سأكسبه بجهدي، وفي هذه الحالة سأكون حرًّا فيما أمارسه من عمل أو تجارة شخصية. كل ما عليه هو أن يقيم داخل الدولة الإسلامية.

والبديهي أن امرأة إذا لم تُرِدْ لنفسها الحرية رغم تواجُد الفرص المذكورة أعلاه فلا شك أنها تجد خطرًا في ذهابها إلى بلدها، ولا تريد انتهاز فرص التحرر من خطر المكوث عند رجل مسلم. فليس عند الرجل المسلم، والحالة هذه، بدٌّ من أن يتزوجها قهرًا، لأنها إذا لم تتحرر، ولم يتزوجها المسلم جبرًا أيضًا، فلا بد أنها ستنشر الفاحشة في بيته وفي المجتمع؛ والإسلام لا يسمح بذلك. فإنما الفرق بين الحرائر وبين أسيرات الحرب أنه يجوز للحرة أن تتزوج برضاها، أما الأسيرة فإنها إما تتحرر بهذه الطرق التي فتحها الإسلام لها، أو يتزوجها صاحب البيت الذي تقيم هي فيه منعًا لانتشار الفاحشة؛ وإذا ولدت منه ولدًا صارت حرة.

إذًا فيجب أن لا ينخدع أحد بكلمات ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، فإنها لا تعني الرق، لأن الإسلام لا يجيز الرق. إن القرآن الكريم يعلن صراحة أنه لا يجوز أخذ الأسرى من قوم حتى تقع بينكم وبينهم حرب دموية. ثم إنه يأمر بإطلاق سراحهم بوسائل شتى تملكها غالبًا الدولةُ الإسلامية أو الدولة الكافرة أو أقارب الأسرى أو الأسرى أنفسهم. أما إذا لم تسع الدولة المسلمة، وهي محايدة في القضية، لتفتدي المرأةَ الأسيرة، كما لم تسع لذلك الحكومة الكافرة المنحازة للأسيرة أيضًا، ولم يحاول أقارب الأسيرة الذين هم أكثر قلقًا عليها أن يفتدوها، كما لم تحاول الأسيرة نفسها لحريتها مع أن المفروض أن تكون أحرصَ على شرفها من غيرها، ثم يتزوجها أحد المسلمين، فمع ذلك يبقى أمامها طريق مفتوح آخر وهو أنها إذا ولدت لـــه ولدًا تحررت تلقائيًا، وليس محرمًا عليها أن تخرج من قيده رغم كونها أسيرة حرب. فبالله عليك، هل تُعتبر هذه المرأة حرة أم أسيرة؟ فأولاً قد حرّم الإسلام أسرها بفرض شروط شتى، ثم فتح طرقًا عدة لحريتها حتى قبل زواجها من مسلم، ثم أعلن أنها ستصبح حرة بمجرد أن تلد له ولدًا بعد الزواج، وهكذا أعطى ضمانًا دائمًا بأنه حرام بيعها بشكل من الأشكال (المحلّى لابن حزم كتاب العتق، المسألة

رقم ١٦٨٣ الجزء التاسع ص ٢١٧)؛ فهل توجد في الدنيا امرأة حرة تتمتع بحقوق أكثر من هذه؟

والدرجة الخامسة في الرقي الروحاني هي ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.. أي أنهم يحافظون على كل أمانة تُركت عندهم، ويفون بكل عهد يعقدونه ولو مع كافر أو عدو.

لقد عمل النبي ﷺ بمبدأ الأمانة بشدة حتى ورد في التاريخ أن شخصًا كان يرعى الغنم لأحد رؤساء اليهود، فأسلم خلال محاصرة الجيش المسلم لخيبر. فقال: يا رسول الله، لا أستطيع الآن العودة إليهم، فماذا تأمرني في غنم سيدي؟ فقال النبي ﷺ: وَجِّهْ غنم سيدك إلى حصن اليهود وسُقْها إليه، سيأخذها الله إلى صاحبها. ففعل. ولما وصلت الغنم قريبًا من الحصن ساقها اليهود داخله (السيرة الحلبية: غزوة خيبر، الجزء الثالث ص ٤٥).

إن التدبر في هذا الحادث يكشف لنا مدى حرص النبي ﷺ على أداء الأمانة، فإنه لم يسمح باستباحة مال العدو بغير حق حتى أثناء الحرب. إن هذا العصر يدعى عصر الرقي والحضارة، ولكن لم يحدث فيه قط أن وقعت مواشي العدو في أيدي قوم فردوها إليه. كلا، بل إنهم يستبيحون اليوم أموال القتلى في الحرب، حتى أصبح النهب والسلب لعبة يومية. وعلى النقيض ترى أنه برغم أن الأغنام كانت لشخص يحارب المسلمين، وبرغم أن وصول الغنم إلى حصن العدو يعني ضمان الزاد لهم لشهور واستمرار الحرب لفترة أطول، إلا أن النبي ﷺ لم يرض بالخيانة بأي حال، فأمر راعي الغنم بتوجيه الغنم إلى الحصن كيلا يرتكب إثم الخيانة. وهكذا لقّنه النبي ﷺ أول درس عند إسلامه بأنه إذا ائتُمن على شيء فعليه أن يحافظ على أمانته حتى في أحرج الأوقات ويؤديها إلى أهلها.

لقد تعلَّم الصحابة – رضي الله عنهم – هذا الدرس من النبي ﷺ وعمِلوا به بما لا نجد لـــه نظيرًا في شعوب العصر الحاضر التي تدّعي التحضر والتهذب. وما أروعَ النموذجَ الذي قدمه الصحابة في حمص. فعندما فتحوا هذه المدينة المركزية للنصارى، أخذوا منهم مئات الآلاف من المال كضريبة. لكنهم اضطروا فيما بعد

لإخلاء المدينة لبعض المصالح الحربية، فدعوا ذوي الرأي والعقل من أهلها، وقالوا لهم لقد أخذنا منكم هذه الضريبة نظير حمايتنا لأنفسكم وأموالكم، ولكن الوضع قد خرج عن سيطرتنا، وها نحن نترك مدينتكم، ونرى من الخيانة أن نحتفظ بأموالكم هذه، فردّوا إليهم تلك الأموال كلها التي بلغت الآلاف. ويخبرنا التاريخ أن هذا الحدث قد ترك في قلوب النصارى وقعًا عميقًا لدرجة أن المسلمين لما غادروا هذه المدينة خرج معهم النصارى يودّعونهم وأعينهم تفيض من الدمع، وهم يدعون لهم قائلين: أعادكم الله إلينا ثانية، فلم نر حاكمين أمثالكم قط. (فتوح البلدان للبلاذري: أمرُ حمص ويوم اليرموك ص ١٣٦-١٣٧ و١٤٣)

واعلم أن الله تعالى قد عدَّ الحُكم أيضًا أمانة، وأمرنا بعدم الخيانة في هذه الأمانة، وأن نسلِّم زمام الحكم دائمًا إلى أيد قوم هم أهل لأداء أمانة السلطة على أحسن ما يرام. ويؤكد لنا التاريخ أن المسلمين قد عملوا بهذا الأمر الرباني بكل شدة. هناك مؤرخ مسيحي أوروبي شهير اسمه "غِبن" (Gibbon)، وقد ألف كتابًا تاريخيًا عن أحوال الرومان. لقد قال في كتابه هذا عن السلطان المسلم "ملِك شاه" إن أباه "ألب أرسلان" تُوفي وهو صغير، فتآمر عليه شقيق له بالتواطؤ مع عم لـــه وابن عم لـــه ونصَب نفسه ملكًا ضده. فاندلعت حرب أهلية في البلاد. وكان نظام الدين الطوسي يعمل رئيسًا للوزراء عند "ملك شاه"، وكان شيعيًّا. فطلب من الملك أن يذهب معه إلى ضريح الإمام موسى رضا ويدعو هناك بأن ينصره الله على خصمه في الحرب. فذهب معه. فلما فرغا من الدعاء قال ملك شاه للطوسي: بماذا دعوت؟ قال دعوت بأن يكتب الله لك الفتح. فقال الملك: أما أنا فلم أدع هكذا، بل دعوت أن يا رب إذا كان أخي أجدر مني بالحكم على المسلمين فانصُرْه، وخُذْ مني نفسي وتاجي. ولو كنت أنا الأحق بأداء هذه الأمانة على وجه أفضل فاكتبْ لي الفتح.

إن "غبن" هذا المؤرخ المسيحي متعصب جدًّا، ولكنه لم يجد بدًّا من أن يعلق على هذه الواقعة قائلا: إنه لمن المحال أن نجد في صفحات التاريخ نظرية هي أطيب

وأرحب من قول هذا الأمير المسلم الشاب، ويستحيل أن يتحلى حتى الشيوخ من الملوك المسيحيين بمثل هذه الأخلاق الطيبة.

(The Decline and fall of the roman empire vol.2 p. 984)

الحق أن هذه الروح الطيبة لم تنشأ في المسلمين إلا لأن الإسلام قد رسخ في أذهانهم بكل قوة بأن الحُكم نوع من الأمانة، ومن واجبكم أن لا تخونوا أي أمانة أبدًا.

أما العهد فكان النبي ﷺ حريصًا على إيفائه حرصًا شديدًا. فحتى قبل إعلان الدعوى كان ﷺ عضوًا في لجنة قام بعض الشباب من مكة بتشكيلها باسم "حِلف الفضول"، بهدف نصرة المظلومين لما رأوا من حروب قَبَليّة وخصومات يومية وفسادات متكررة. فقد أقسم هؤلاء الشباب على أنهم سينصرون المظلوم ويسعون لاسترداد حقه من الظالم، أو يدفعون له من عندهم ما بقيت في البحار قطرة ماء. إن التاريخ لا يمدّنا بأية معلومات فيما يتعلق بالإنجازات التي حققتها هذه اللجنة التي قامت دفاعًا عن حقوق المظلومين والنهوض بهم، غير أننا نجد في التاريخ حادثًا للنبي ﷺ بعد إعلان دعواه وبعد أن صار أهل مكة أعداء متعطشين لدمائه. كان أبو جهل مدينًا لشخص، وكان لا يدفع لـــه ماله، فجاء صاحبُ الدَّين إلى النبي ﷺ وقال لـــه: كنتَ عضوًا في "حلف الفضول"، وقد حلفتَ على نصرة المظلوم، فأناشدك بحلفك هذا بأن تأتي معي وتسترد مالي من أبي جهل. فخرج النبي ﷺ معه من توّه، مع أن خروجه هكذا في مكة لم يكن خاليًا من الخطر، كما أن أبا جهل نفسه كان عدوًّا لدودًا للنبي ﷺ، فكان من الممكن أن يصيبه بأذى. ولكنه ﷺ خرج مع الرجل ووصل إلى بيت أبي جهل، ودقّ عليه الباب. فلما خرج قال لـــه النبي ﷺ: أَعْطِه ماله الذي أخذت منه. فدخل أبو جهل بيته بدون تردد، وأتى بالمال وسلّمه لصاحبه. ولم يكن هذا الحادث ليخفى على القوم، فشاع خبره في مكة انتشار النار في الهشيم، وأخذ القوم يقولون فيما بينهم إن أبا الحِكم (أي أبا جهل) يأمرنا أن لا نسمع لمحمد (ﷺ)، ولكنه نفسه يخاف منه لدرجة أنه قد رد المال لصاحبه فورًا حين أمره محمد. فلما سمع أبو جهل بحديثهم قال: ويحكم، والله

لو كنتم مكاني لفعلتم ما فعلتُ! فإن محمدًا (ﷺ) لما جاءني رأيت جَملين* هائجين على يمينه وشماله، فأخذني منهما ذعر شديد، وقلت في نفسي إذا لم أنفذ أمر محمد فسيفترسني الجَملان افتراسًا (السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثالث: أمر الأراشي)

والله هو الأعلم ما إذا كان أبو جهل قد رأى مشهدًا كهذا فعلاً، أم أن رعب الحق قد استولى عليه، إلا أن النبي ﷺ لما ذهب إليه ليسترد منه حق مظلوم، احترامًا لمعاهدة "حلف الفضول"، غيرَ مكترث بما تحدق به من أخطار شديدة، قضى رعب الحق على نـــزعة الشر في أبي جهل، فرضي بإعطاء المظلوم حقه.

ومما يدل على حرصه ﷺ الشديد على الوفاء بالعهد ما حدث عند صلح الحديبية. فكان الفريقان قد تصالحا على أنه إذا أسلم شاب من مكة فلا بد أن يرده المسلمون إلى أقاربه في مكة، ولكن إذا أراد مسلم العودة إلى مكة والالتحاق بأهلها فلن يردّوه للمسلمين. وما أن جفّ حبر هذه المعاهدة حتى جاء أبو جندل – الذي كان أبوه سهيل يعقد الصلح من قبل أهل مكة – مصفَّدًا بالقيود ومنهَكًا بالجروح وسقط أمام النبي ﷺ، وقال يا رسول الله، إن أبي هذا يعذبني نتيجة إسلامي، وقد انتهزتُ فرصة وجوده هنا وفررت من البيت. وقبل أن يجيبه النبي ﷺ بشيء قال أبوه سهيل: لقد تّمت المعاهدة بيننا، فلا بد أن يرجع ابني معي. وكانت حالة أبي جندل مؤلِمة حتى سالت عيون المسلمين بدموع الدم برؤيته، فقال للنبي ﷺ بكل ضراعة: يا رسول الله، هل ترجعني إليهم في مكة ليعذبوني أشد من ذي قبل؟ ولكن الرسول ﷺ قال: إن رسل الله لا ينقضون العهود. فلا بد لك من العودة إليهم والصبر والتوكل على الله تعالى. فأُرجع أبو جندل إلى مكة. ثم لما وصل النبي ﷺ المدينة لحقه من مكة شاب آخر اسمه أبو بصير، ولكنه ﷺ أرجعه هو الآخر إلى مكة بموجب العقد. (السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثالث: أمرُ الهدنة، وما جرى عليه أمرُ قومٍ من المستضعَفين بعد الصلح)

* ورد في المصدر المشار إليه أنه رأى جملاً لا جملين. *(المترجم)*

ومما يدل على شدة اهتمام النبي ﷺ بوفاء العهد أنه في إحدى المرات جاءه سفير حكومة برسالة، فاقتنع السفير بصدق الإسلام ببركة صحبته ﷺ بضعة أيام. فقال يا رسول الله، أريد أن أعلن إسلامي، فقال ﷺ لـــه: هذا غير مناسب، فإنك مسؤول مرموق في حكومتك. عليك أن ترجع إلى بلدك الآن كما أنت، ولو رأيتَ أن حب الإسلام لا يزال متمكنًا من قلبك فارجعْ إلينا وأَسْلِمْ ثانية.◈

وقد حرص المسلمون أيضًا على الوفاء بالعهد حرصًا شديدًا، فخلال إحدى المعارك عقد الكافرون مع أحد المسلمين الأحياش الهدنة على سبيل الخداع، ثم فتحوا باب الحصن، فلما تقدمت جنود المسلمين ليقتحموا الحصن قال الكافرون: كيف تهاجموننا وقد عقدتم معنا معاهدة. فقال القائد المسلم لم تتم أي معاهدة بيننا. قالوا لقد عقدناها مع عبد منكم، وقد آتانا الأمان على شروط. قال: ليس لهذا أن يعقد معكم أي معاهدة، إنما كان عليكم أن تعقدوا أي عقد معي. قالوا نحن لا نعلم شيئًا، لقد تمّت الهدنة بيننا. فلما احتدّ الجدال كتب القائد المسلم إلى عمر رضي الله عنه يخبره بالحادث ليأمره بما يجب. فكتب إليه عمر رضي الله عنه في الجواب: إن الله تعالى قد عظّم الوفاء بالعهد جدًّا، فعليك أن تتموا إليهم عهدهم إلى أن ينكثوه بأنفسهم. (الطبري: ذكرُ مصالحة المسلمين أهل جندي سابور، الجزء الخامس ص ٧٥)

قصارى القول إن الإسلام قد أولى الصدق والأمانة والالتزام بالمعاهدات أهمية كبرى، وأعلن أن المؤمنين الفائزين الذين يقدمون قدوة حسنة في أداء أماناتهم ورعاية عهدهم.

والدرجة السادسة التي ذكرها الله هنا هي أن هؤلاء المؤمنين يحافظون على صلواتهم. لقد استخدم الله تعالى هنا كلمة ﴿صَلَوَاتِهِمْ﴾، وهي صيغة الجمع، وذلك

◈ نص الحديث: عن أبي رافع قال: "بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ. فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ أُلْقِيَ فِي قَلْبِي الإِسْلامُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنِّي وَاللَّه لاَ أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ وَلا أَحْبِسُ الْبُرُدَ، وَلَكِن ارْجِعْ، فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسكَ الَّذي فِي نَفْسكَ الآنَ فَارْجِعْ. قَالَ: فَذَهَبْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ، فَأَسْلَمْتُ. (أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الإمام يستجنّ به في العهود) *(المترجم)*

ليشير إلى أمرين: الأول أنهم يؤدّون كل الصلوات، سواء الفرائض أو النوافل، على أحسن وجه؛ والثاني أنهم يحافظون على العبادة الظاهرة لكل فرد من قومهم.. أي أنهم يراقبون ما إذا كان أولادهم وزوجاتهم وأقاربهم وجيرانهم وكل قومهم يواظبون على الصلاة أم لا؟ ذلك لأن عمل المرء يظل عرضة للخطر ما لم تصلح كل العائلة بل كل القوم أعمالهم. فكثيرًا ما يحدث أن المرء إذا أراد أن يوقظ ولده لصلاة الفجر يقول في نفسه من شدة حبه له إن البرد قارس، فما الداعي لإزعاجه؛ إنه سيصاب بالبرد إذا استيقظ للصلاة. ثم إذا أراد إيقاظ زوجته ثارت عواطف المحبة في نفسه وقال لقد ظلت امرأتي تمشي هنا وهناك طوال الليل حاملة الطفل، ولو أيقظتها سيفسد نومها؛ فالأفضل أن تنعم بالنوم الآن وستصلي فيما بعد. وهكذا لا يوقظ المرء أهله وأولاده بحجة البرد القارس تارة وبحجة الحر الشديد تارة أخرى. فيظل يقول ستةَ أشهر من الشتاء كيف أوقظ الطفل في البرد القارس إذ قد يصاب بالبرد، ويظل يقول ستة أشهر من الصيف: لا يزال طفلي كالزهرة الناعمة، ولو خرج للصلاة في هذا القيظ فستضربه الشمس. فتمنعه هذه المشاعر والعواطف عند كل خطوة، فلا يستطيع أن يصلح نفسه ولا أهله. ومن أجل ذلك قال الله تعالى ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(التحريم: ٧).. أي يا عبادي، لا تنقذوا أنفسكم فقط من جهنم بل أهلكم وعيالكم أيضًا؛ إذ لا يكفي حماية أنفسكم من النار، بل لا بد لكم من حماية الآخرين، لأنهم إذا لم ينجوا منها فسيتسببون في دخولكم فيها أنتم أيضًا.

غير أنه يجب أن لا يغيبن عن البال أن إقامة الصلاة درجات عديدة، وأُولى هذه الدرجات، التي ليست دونها درجة أخرى، أن يواظب المرء على أداء الصلوات الخمس. إن المسلم الذي يؤدي الصلوات الخمس بدون أي انقطاع يتبوأ الدرجة الأدنى من الإيمان.

والدرجة الثانية هي أن تؤدَّى الصلوات الخمس في أوقاتها، فالمسلم الذي يؤدي الخَمس في مواقيتها يضع قدمه في الدرجة الثانية في سُلّم الإيمان.

والدرجة الثالثة هي أداء الصلاة مع الجماعة، وبذلك يصعد المؤمن إلى الدرجة الثالثة في سُلّم الإيمان.

والدرجة الرابعة هي أن يصلّي المرء وهو يعي مفهوم كلمات الصلاة. فالذي لا يعلم معاني كلمات الصلاة عليه أن يتعلمها، أما الذي يعلمها فعليه أن يصلي بتأن وهدوء، حتى يستيقن بأنه قد أداها كما حقها.

والدرجة الخامسة هي استغراق المصلي في الصلاة كلية. فينهمك في صلاته كما يغطس الغطاس في البحر حتى يصل إلى أحد المقامين: أن يوقن وكأنه يرى اللهَ تعالى، أو يصلي بيقين بأن الله يراه. ومَثله في المقام الثاني كمثل طفل كفيف جالس في حضن أمه. لا شك أن الطفل البصير الجالس في حضن أمه والناظر إليها ينعم بالاطمئنان، ولكن الطفل الضرير الجالس في حضنها أيضًا يطمئن مدركًا أن أمه تراه وإن لم يكن يرى أمه بسبب عماه. لقد قال النبي ﷺ إن المؤمن لا بد له أن ينال أحد هذين المقامين خلال الصلاة؛ فإما أن يرى اللهَ تعالى، أو أن يكون قلبه مفعمًا باليقين بأن الله يراه (البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريلَ النبيَّ ﷺ عن الإيمان). هذه هي الدرجة الخامسة من الإيمان، وهنا ينتهي ما كتب الله على المرء من فرائض. ولكنه لم يصعد بعد إلى المكانة الرفيعة التي يجب أن يصل إليها.

والدرجة التالية وهي السادسة للإيمان هي أن يصلي المرء النوافل. ومن أدى النوافل فكأنما يقول لله تعالى يا رب لقد أديت الفرائض، ولكن قلبي لم يطمئن بأدائها، وأودّ المثول في جنابك في أوقات إضافية غير مواعيد الفرائض. ومثاله كأن يذهب المرء لزيارة بعض الصالحين، وعند انتهاء وقت اللقاء يقول له: أرجوك أن تعطيني دقيقتين أو أكثر؛ فيجد المتعة في هاتين الدقيقتين الزائدتين. كذلك فإن المؤمن حين يؤدي النوافل بعد الفرائض فكأنما يقول لله تعالى أود الآن أن أظل ماثلاً أمامك وقتًا أطول.

والدرجة السابعة هي أن لا يكتفي المرء بأداء الصلوات الخَمس والنوافل فحسب، بل يصلي التهجد أيضًا في جوف الليل. وبهذه الدرجات السبع تكتمل صلاة المرء. والحائزون هذه الدرجاتِ قوم قد ورد عنهم في الحديث أن ربنا تبارك

وتعالى يَنـــزل كلَّ ليلة من عرشه إلى سماء الدنيا، وتنادي ملائكته يا عباد الله، إن ربكم قد جاء للقائكم، فاستيقظوا والتقُوه.*

إذًا فلا بد لكل امرئ من الوصول إلى هذه الدرجات السبع. عليه أن يواظب على الصلوات الخمس. وعليه أن يؤديها في مواقيتها. وعليه أن يصلّي مع الجماعة. وعليه أن يصلّي وهو يعلَم ما يقرأ وإلا فعليه أن يتعلم معاني الصلاة. ومن واجبه أن يصلي النوافل آناء الليل وآناء النهار إضافةً إلى الصلوات المكتوبة. ومن واجبه أن يصلي باستغراق وكأنه – كما قال الرسول ﷺ – يرى اللهَ تعالى أو يوقن بأن الله يراه. ثم ينبغي لكل واحد منا أن يواظب على أداء الفرائض والنوافل بحيث يصبح ليله نهارًا ونهاره ليلا. كما يجب عليه أن يسعى للانتفاع بمناجاة ربه وقت التهجد أكثر فأكثر. وما لم يحافظ المرء على صلواته بهذا الأسلوب فأمله في أن يُرضي ربه يظل ضربًا من الوهم فحسب.

ثم يقول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .. أي أن الدرجة السابعة من الرقي الروحاني للإنسان هي أن الله تعالى يورثه جنة هي مجموعة الجنات كلها أي الفردوس. والفردوس في العربية جنة تجمع كل ما يوجد في البساتين. وفي هذا إشارة إلى أن هؤلاء المؤمنين كما يجمعون في أنفسهم كل الخواص الروحانية العليا، كذلك سيُدخلهم الله تعالى في مكان جامع لكل الميزات والمحاسن.

أما قوله تعالى ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فأشار به إلى أن هؤلاء القوم لما كانوا يحافظون على عبادة الله تعالى دائمًا، كذلك فإنه تعالى سوف يتأكد من أن يظل هؤلاء وارثين لهذه النعم دائمًا، فلا تأتي عليهم ساعة الزوال أبدًا.

---

* نص الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ينـــزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخرُ، فيقول: مَن يدعوني فأستجيب لـــه، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر لـــه. (البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل). *(المترجم)*